مدخل إلى أدبيات التشيع في المغرب والأندلس

• الدكتور علي لغزيوي

قد يبدو الحديث عن التشيع في الأندلس – وكذلك في الغرب الإسلامي بأسره – أمراً مستغرباً إلى حد ما، ذلك بأن هذه المنطقة من بلاد الإسلام كانت سنية على امتداد تاريخها، ولم تدخلها الفرق الدينية التي سادت في المشرق، والدولة المغربية الأشد ارتباطاً بالتشيع وهي الدولة الفاطمية، التي ظهرت في تونس، سرعان ما اتجهت نحو مصر في المشرق.

منذ كتب الدكتور محمود علي مكي مقاله القيم عن (التشيع في الأندلس) لم يظهر ما هو أكثر توسعاً وتفصيلاً في هذا الموضوع، وإن لم تخلُ الدراسات اللاحقة من إشارات ووقفات عند بعض جوانبه ومنها، على سبيل المثال، ما أشار إليه الدكتور عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب في مقدمة تحقيقهما لكتاب"درر السمط في خبر السبط"لابن الأبار القضاعي، وما سجله صاحب هذا العرض في رسالته الجامعية عن (أدب السياسة والحرب في الأندلس) من أدبيات التشيع وما ارتبط بها من ظواهر وقضايا، ومن ذلك ملاحظته لظاهرة "تشيع" عدد من الشعراء في الأندلس للأمويين السنين، وميلهم الواضح إلى استعمال المعجم الشعري الشيعي في مدح خلفاء بني أمية، ومنهم الشاعر ابن عبد ربه صاحب (العقد الفريد)، والشاعر محمد بن شخيص وغيرهما من شعراء القرنين الثالث والرابع للهجرة.

ثم ازدهرت في العصور اللاحقة في الأندلس أدبيات التشيع بصفة عامة، والأدبيات الحسينية بصفة خاصة، فتعددت مراثي الحسين رضي الله عنه، وكثر البكاء على آل البيت

الأطهار. وتنوع توظيف مأساة كربلاء في الأشعار الأندلسية، بل ازدهرت حركة التأليف في الموضوع على يد أبي البحر صفوان بن إدريس، وأبي عبد الله ابن أبي الخصال الشقوري، وابن الأبار القضاعي البلنسي صاحب التأليف القيم في الأدبيات الحسينية، وهو (درر السمط في حبر السبط)،ويعد واحداً من الآثار النفيسة التي سلمت من الضياع، وعرفت طريقها إلى التحقيق والنشر أكثر من مرة، في المغرب والمشرق، وكذلك كتابه الآخر في بكاء الحسين رضي الله عنه وهو (معدن اللجين في مراثي الحسين)، وقد حدد الغبريني قيمته بقوله: "ولو لم يكن له من التأليف إلا هذا الكتاب لكفاه في ارتفاع درجته وعلو منصبه وسمو رتبته"، وألف أبو عبد الله التجيبي كتاباً بعنوان (مناقب السبطين) كان من جملة ما يُدرسه لطلبته في الأندلس، وممن رواه عنه تلميذه ابن الأبار.

كما تفرغ عدد من الشعراء والأدباء لهذا الموضوع الطريف في البيئة الأندلسية على اختلاف العصور والتزموا به دون سواه، واستمر ذلك إلى العصور المتأخرة ابداعاً وتأليفاً، مع تفاوت في ازدهار هذه الأدبيات بين عصر وآخر، لأسباب عامة وخاصة، محلية نابعة من البيئة المغربية الأندلسية، أو طارئة وافدة من المشرق، ومرتبطة حيناً بالمذهبية الشيعية وما تقوم عليه من أيديولوجية، ومتصلة حيناً آخر بظاهرة التعلق بالنبي(ص)، وبآل البيت الأطهار رضي الله عنهم، وتطول القائمة لو حاولنا استعراض أسماء الشعراء والكتاب الذين أسهموا في هذا الموضوع المؤثر، وعناوين المصنفات العديدة في هذا المجال.

وبالنظر إلى طرافة الموضوع وحيويته، وغنى ما وصلنا من نصوصه الشعرية والنثرية، وأهمية المؤلفات فيه، وتقديراً لما تحمله هذه الأدبيات من عمق في العواطف، وتنوع في الأساليب، وغنى في الظواهر، وصدق في الأداء الفني، وبراعة في تشكيل الصور الفنية المؤثرة التي تساعد على تحقيق التجاوب الوجداني بين تلك النصوص والمتلقي المعاصر إلى اليوم.

أسباب ذاتية

غير أن ما سبق ذكره لا يعني اطراد هذه الأدبيات على وتيرة واحدة، فهي قد ظلت مستمرة حاضرة لدى الأدباء، ولكن بعض البيئات والعصور كانت تعرف اهتماماً زائداً ونشاطاً ملحوظاً، بسبب ظهور بعض الأسباب والحوافز الذاتية حيناً. والموضوعية حيناً آخر، كقوة الرغبة الذاتية في التشيع، وشدة الحنين إلى الرسول (ص) وإلى آل بيته، وترجمة تلك الأحاسيس إلى رسائل شوق وتعلُق، أو مراث وبكاء،لا فرق في ذلك بين علماء

السنة وحفاظها وغيرهم، ويبدو أن التجارب الشخصية في حياة هؤلاء، وما تعرضوا له من نكبات كانت في الغالب وراء هذه الميول الدفينة، وحافزاً من حوافز إنتاجهم الشعري والنثري والتأليفي في هذا الموضوع. كما أن ظهور بعض الدول ذات الميول الشيعية، أو المرتبطة بصلةٍ من النسب بآل البيت النبوي الشريف كان وراء ازدهار هذه الأدبيات، والإكثار من القول في هذا الموضوع الذي تعلوه في الغالب مسحة من الحزن المؤثر.

وأخرى سياسية

ويبدو من خلال تتبع المصادر الغميسة وما تضمنته من إشارات في هذا المجال أن النزعة الذاتية لم تكن وحدها وراء ازدهار أدبيات التشيع في المغرب والأندلس، إلى الدرجة التي تجعل منها موضوعاً قائماً بذاته، لافتاً للنظر، مطرداً في مختلف العصور وبيئات الغرب الإسلامي، بل كانت هناك دوافع أخرى في الغالب، وفي مقدمتها التوجهات السياسية وما تستند إليه من خلفية مرجعية مهما كانت درجتها من القوة أو الضعف، وذلك منذ عهد الأدارسة الذين أسسوا أول دولة إسلامية مستقلة فيما يعرف اليوم بالمغرب الأقصى، وحققوا له الوحدة والاستقرار منذ ذلك العهد، على أساس مبدأ (البيعة) لسليل رسول الله (ص) بما لهذا المبدأ الشرعي من دلالات مرتبطة بالعقيدة ونظرية الخلافة في الإسلام، وفي هذا السياق تدخل في الغالب ثورة حسين بن قنون "كنون" الحسني في القرن الرابع الهجري، بما كان وراءها من أسباب وما ترتب عليها من نتائج وانعكاسات سلبية وايجابية في الوقت ذاته، في المغرب والأندلس، وكذلك ما سبقها وما لحقها من حركات التفت بثياب التشيع أحياناً. وفي هذا السياق أيضاً يدخل اهتمام الخليفة الأموي الأندلسي الحكم المستنصر بالتأليف في الشيعة بصفة خاصة، وبالطالبيين والعلويين القادمين من المشرق بصفة عامة، وإن كان ذلك يبدو في الظاهر جزءاً من شغفه بالكتب وحرصه على إغناء خزانته بالنفائس منها، وقد كان شغوفاً بالقراءة والتعليق على ما يقرأ، مشجعاً للمؤلفين والنقاد من أجل وضع المصنفات في مختلف العلوم والمعارف، وله ألف ابن الشبانسية كتاب (التاج السَني في نسب آل علي) وبرسم خزانته الحكيمة حبره.

والغالب أنه عُني فيه بجمع كثير من الأخبار عن الشيعة في المغرب والأندلس، وهي مادة تساعد بدون شك على تحقيق التوارنات السياسية والاجتماعية في عالم ذلك الوقت، في إطار الصراع الأيديولوجي السائد، بما له من صلات قوية بالتجارة والاقتصاد وما يقومان عليه من موارد ومواد، وما تحتاج إليه حركة الملاحة والتجارة من جهة، والهيمنة

السياسية من تحكم في المواقع الاستراتيجية على ضفتي البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

لقد مثلت (مأساة الحسين) أهمية كبيرة في ضمير الأمة الإسلامية، ولعل أهم من فصل القول فيها من المعاصرين هو الدكتور عبد السلام الهراس في مقالاته المتتابعة التي نشر مجموعة منها بمجلة "المناهل" التي تصدرها وزارة الشؤون الثقافية في المغرب، وقد بلغ الأمر بالعلامة الظاهري ابن حزم الأندلسي ذي الميول الأموية القوية أن سجل في بعض مصنفاته بكل صراحة أن مقتل الحسين يُعد من أكبر مصائب الإسلام الأربعة إلى عهده.

وهكذا فإن الغرب الإسلامي عامة، والأندلس خاصة، من أهم البيئات غير الشيعة أصلاً التي تعلقت بحب آل البيت إلى درجة كبيرة أثارت عجب عدد من أبناء هذه الأمصار أنفسهم، ومن ذلك ما سجله الكاتب الأندلسي أبو المطرف أحمد بن عميرة في رسالة من رسائله حين قال: "كلا، بل دانت (الأندلس) للسنة، وكانت من البدع في أحصن جنة، هذه المروانية مع اشتداد أركانها، وامتداد سلطانها، ألقت حُب آل النبوة في حَبات القلوب، وألوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه بمطلوب إلى المرابطة بأقاصي الثغور، والمحافظة على معالي الأمور، والركون إلى الهضبة المنيعة والروضة من معاداة وموالاة الشريعة"